

تفسير البحر المحيط

@ 131 @ لأنهم الذين ينتفعون بتفصيل الآيات ، ويتدبرون بها في الاستدلال والنظر الصحيح . والآيات العلامات الدالة أو آيات القرآن . .

{ إِنَّ سَفِيَّ أَخْتِ لَافِ السَّيْلِ وَالذَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّسَّهُ فِي * السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ * لَايَاتٍ لِّلْقَوْمِ يَتَّقُونَ } والاختلاف تعاقب الليل والنهار ، وكون أحدهما يخلف الآخر . وما خلق الله في السموات من الأجرام النيرة التي فيها ، والملائكة المقيمين بها وغير ذلك مما يعلمه الله تعالى . والأرض من الجوامد والمعادن والنبات والحيوان ، وخص المتقين لأنهم الذين يخافون العواقب فيحملهم الخوف على تدبرهم ونظرهم . .

{ إِنَّ السَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِأَلْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالسَّذِينَ هُمْ عَنَّا يَاتِينَ غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } : الظاهر أن الرجاء هو التأيل والطمع أي : لا يؤملون لقاء ثوابنا وعقابنا . وقيل : معناه لا يخافون . قال ابن زيد : وهذه الآية في الكفار ، والمعنى أن الكذب بالبعث ليس يرجو رحمة في الآخرة ، ولا يحسن طناً بأنه يلقي الله . وفي الكلام محذوف أي : ورضوا بالحياة الدنيا من الآخرة كقوله : { يَا أَيُّهَا السَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ } والمعنى أن منتهى غرضهم وقصارى آمالهم إنما هو مقصور على ما يصلون إليه في الدنيا . واطمأنوا أي سكنوا إليها ، وفتنعوا بها ، ورفضوا ما سواها . والظاهر أن قوله : والذين هم ، هو قسم من الكفار غير القسم الأول ، وذلك التكرير الموصول ، فيدل على المغايرة ، ويكون معطوفاً على اسم إن ويكون أولئك إشارة إلى صنف الكفار ذي الدنيا المتوسع فيها الناظر في الآيات ، فلم يؤثر عنده رجاء لقاء الله ، بل رضي بالحياة الدنيا لتكذيبه بالبعث والجزاء ، والعدم التوسع الغافل عن آيات الله الدالة على الهداية . ويحتمل أن يكون من عطف الصفات ، فيكون الذين هم عن آياتنا غافلون ، هم الذين لا يرجون لقاء الله . والظاهر أن واطمأنوا بها عطف على الصلة ، ويحتمل أن يكون واو الحال أي : وقد اطمأنوا بها . والآيات قيل : آيات القرآن . وقيل : العلامات الدالة على الوجدانية والقدرة . وقال ابن زيد : ما أنزلناه من حلال وحرام وفرض من حدود وشرائع أحكام ، وبما كانوا يكسبون إشعاراً بأن الأعمال السابقة يكون عنها العذاب ، وفي ذلك رد على الجبرية ، ونص على تعلق العقاب بالكسب . ومجيئه بالمضارع دليل على أنهم لم يزالوا مستمرين على ذلك ماضي زما نهم ومستقبله . .

{ إِنَّ السَّادِّينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ }
بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهارُ في جنّاتٍ النعيمِ *
دعواهم فيها سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّاتُهُمْ فيها سلامٌ وءاخرُ
دعواهم أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ { : أي يزيد في هواهم بسبب
إيمانهم السابق وثبتهم ، فأما الذين آمنوا فزادتهم أو يهديهم إلى طريق الجنة بنور
إيمانهم كما قال : { يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ } قال
مجاهد : يكون لهم إيمانهم نوراً يمشون به . وفي الحديث : (إذا قام من قبره يمثل له
رجل جميل الوجه طيب الرائحة فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا عملك الصالح ، فيقوده إلى
الجنة) وبالعكس هذا في الكافر . وقال ابن الأنباري : إيمانهم يهديهم إلى خصائص المعرفة ،
ومزايا في الألفاف تسر بها قلوبهم وتزول بها الشكوك والشبهات عنهم كقوله : {
وَالسَّادِّينَ أَهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى } وهذه الزوائد والفوائد يجوز حصولها في
الدنيا قبل الموت ، ويجوز حصولها بعد الموت . قال القفال : وإذا حملنا الآية على هذا
كان المعنى يديهم ربهم بإيمانهم ، وتجري من تحتهم الأنهار ، إلا أنه حذف الواو . وقيل :
معناه تقدّمهم إلى الثواب من قول العرب : القدم تهدي الساق . وقال الحسن : يرحمهم .
وقال الكلبي : يدعوهم . والظاهر أنّ تجري مستأنفاً فيكون قد أخبر عنهم بخبرين عظيمين :
أحدهما هداية الله لهم وذلك في الدنيا والآخر بجريان الأنهار ، وذلك في الآخرة . كما تضمنت
الآية في الكفار شيئين : أحدهما : اتصافهم بانتفاء رجاء لقاء الله وما عطف عليه ، والثاني
: مقرهم ومأواهم وذلك النار ، فصار تقسيماً للفريقين في المعنى . وتقدّم قول القفال :
أن يكون تجري معطوفاً حذف منه الحرف ، وأن يكون حالاً ومعنى من تحتهم أي : من تحت
منازلهم . وقيل : من بين أيديهم ، وليس التحت الذي هو بالمسافة ، بل يكون إلى ناحية من
الإنسان . ومنه : { قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتَكِ سَرِيّاً }